الإبداع والابتكار

وحض النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم عليهما

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله الأبرار الأطهار الأخيار وبعد؛؛

إن المتأمل في تاريخ الحضارة الإنسانية يجد أن القفزات الكبرى التي حققتها البشرية لم تكن وليدة الصدفة، بل كانت نتاج بيئات فكرية واجتماعية محفزة أطلقت عقال العقل البشري ليتدبر، ويبتكر، ويطور، وفي هذا السياق، يقف العهد النبوي الشريف كأول نموذج متكامل لبناء مجتمع قائم على المعرفة، وتفجير الطاقات الإبداعية، فلم تكن الرسالة المحمدية مجرد صياغة للضوابط التعبدية والأخلاقية فحسب، بل كانت ثورة فكرية شاملة أعادت هندسة العقل المسلم ليكون عقلاً مبادراً، مرناً، وقادراً على مواجهة تحديات الواقع بوسائل مبتكرة.

لقد أسس المنهج النبوي لثقافة الابتكار عبر منظومة متوازنة تزاوج بين الثبات في العقيدة والتشريع، والحرية المطلقة في استكشاف وتطوير شؤون الحياة الدنيوية وعمارة الأرض. ولم يكتفِ النبي ﷺ بإعطاء الضوء الأخضر لهذه الطاقات، بل تحول في ممارساته اليومية إلى قائد ابتكاري يدير المواهب ويحتضن المبدعين، ويشجع صحابته على إعمال الفكر وتقديم الحلول خارج الصندوق؛ ليتجاوز المجتمع الإسلامي الأول حدود المحيط الجغرافي الضيق، وينفتح بذكاء ووعي على علوم الحضارات الأخرى مستفيداً منها وموطناً لابتكاراتها بما يخدم الإنسانية.

مفهوم الابتكار والإبداع في العهد النبوي:

الإبداع في الأصل: إخراج الشيء من العدم، ولذا فإن من أسماء الله البديع؛ لأنه يُخرج الأشياء من العدم، وابتدأ خلقها بلا مثال، فسبحانه أحسن الخالقين! ويجوز إطلاقه مجازًا على أفعال العباد، فيُقال: أبدع الرجل، وأبدعتَ إذا كان القول أو الفعل على غير مثال سابق، ولذا يقولون عنه إبداعًا وابتكارًا.

وفي البلاغة؛ علم البديع هو أحد علوم البلاغة العربية الثلاثة (إلى جانب المعاني والبيان)، وهو العلم الذي يُعرف به وجوه تحسين الكلام وتزيينه وتجويده، بشرط مطابقته لمقتضى الحال وفصاحة مفرداته.

وعليه فإن الإبداع والابتكار من السمات والصفات التي حضت عليها الشريعة الإسلامية، وشجع عليها النبي الأكرم ﷺ من خلال النماذج التي سنعرض لها، ولكن قبل الخوض في تلك النماذج حري بنا، أن نقف عند مفهوم كلا المصطلحين ودلالته، والفرق بينهما:

وجه المقارنة	الإبداع	الابتكار
المفهوم	القدرة الذهنية على توليد أفكار دعوية جديدة غير مألوفة والربط بينها وبين الأفكار القديمة للوصول إلى أكبر قدر ممكن من الجمهور	التنفيذ الفعلي والعملي لتلك الأفكار وتحويلها إلى وسائل، أو منصات، أو مشاريع دعوية ملموسة تؤثر في الناس.
الدلالة	يدل على المرونة الفكرية للداعية، وعمق فهمه لنصوص الشريعة، وقدرته على استنباط حلول لواقع الناس المعاصر.	يدل على المهارة التقنية والتنظيمية، والقدرة على استخدام أدوات العصر الحديث لنشر الرسالة بكفاءة واستدامة.
القيمة المضافة	يكسر الجمود والنمطية في تقديم الدعوة، ويجعل الخطاب الإسلامي جذاباً وقريباً من عقول الشباب وثقافتهم الحالية.	يحوّل الفكرة الدعوية إلى أثر ملموس واسع الانتشار، يسهّل وصول العلم الشرعي للملايين، ويقيس مدى استجابتهم وتفاعلهم
نموذج تطبقي عملي	فكرة صناعة محتوى قيمي كرتوني عبر الميتافيرس والذكاء الاصطناعي: أن يتخيل الداعية فكرة لتعليم الأطفال أحكام الصلاة أو السيرة	لتنفيذ الفعلي للمشروع (مثل تطبيقات الميتافيرس أو الألعاب الإسلامية الذكية): قيام مؤسسة دعوية ببرمجة تطبيق واقع

	النبوية من خلال بيئة افتراضية تفاعلية ثلاثية الأبعاد بدلاً من التلقين.	افتراضي (VR) يُحاكي رحلة الحج أو غار حراء، وتوفيره مجاناً على المتاجر الإلكترونية ليعيش الطفل التجربة بنفسه.

نماذج من واقع حياة النبي صلى الله عليه وسلم

النموذج المدني:

هناك العديد من النماذج التي ظهرت في مجتمع المدينة، التي دوما ما أسميها المدينة الفاضلة، منها ما قام به النبي ﷺ نفسه، ولعل رأسها وثيقة المدينة، وهي أول دستور مدني، أهتدى إليه النبي الأكرم ﷺ، يحفظ الحقوق، ويبين الواجبات، ويرسخ لمفهوم المواطنة، كذلك فكرته في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهي فكرة مستوحاة من كتاب الله ﷻ مصداقا لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] فحولها النبي ﷺ إلى واقع تطبيقي، ليؤسس أول مدينة فاضلة بحق عرفتها البشرية، وهناك العديد من مواقف سيدنا رسول الله ﷺ حتى قبل بعثته ولعل من أشهرها موقفه من وضع الحجر الأسود، هذا الموقف الذى رواه أصحاب السير فعن أبي نعيم عن مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا أَخَذَتْ قُرَيْشٌ فِي بِنَاءِ الْكَعْبَةِ فَانْتَهُوا إِلَى وَضْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ تَنَازَعَتْ فِيهِ الْأَرْبَاعُ مِنْ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَتَحَاسَدَتْ أَيُّهُمْ يَلِي رَفْعَهُ حَتَّى أَلَمَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ فِيهِ أَمْرٌ شَدِيدٌ فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنْ يُحَكِّمُوا أَوَّلَ رَجُلٍ يَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْبَابَ مِنْ نَحْوِهِمْ وَتَعَاقَدُوا بِاللَّهِ رَبِّ الْبَيْتِ أَنْ يُوَلُّوهُ إِيَّاهُ مَنْ كَانَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ نبي اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ أَمْرًا اخْتَصَّهُ اللَّهُ عز وجل بِهِ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ يُدْعَى الْأَمِينَ فَقَالَتِ الْقَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ: هَذَا الْأَمِينُ ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُوَ بَيْنَنَا وَقَدْ رَضِينَا بِهِ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ لَهُمْ: " مَا أَمْرُكُمْ هَذَا؟ قَالُوا: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ نَازَعْنَا فِي هَذَا الْحَجَرِ وَتَحَاسَدْنَا فَجَعَلْنَاهُ إِلَى أَوَّلِ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الْبَابِ فَكُنْتَ أَوَّلَ دَاخِلٍ فَافْعَلْ فِيهِ أَمْرًا تُصْلِحُ قَوْمَكَ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَوْبًا فَبَسَطَهُ ثُمَّ أَخَذَ الْحَجَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ ثُمَّ أَمَرَ تِلْكَ الْقَبَائِلَ فَأَخَذُوا بِجَوَانِبِ الثَّوْبِ فَرَفَعُوهُ عَلَى

إِصْلَاحٍ مِنْهُمْ وَجَمَاعَةٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَوْضِعِ الْحَجَرِ فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَضَعَهُ بِيَدِهِ وَوَلَّاهُ اللَّهُ عز وجل ذَلِكَ قَبْلَ مَبْعَثِهِ بِسَبْعِ سِنِينَ "[1]

وقد تجلّى الجانب الإبداعي في شخصية النبي ﷺ في ابتكار حلٍّ عبقري خارج الصندوق؛ يدمج بين الرمزية الدينية والمشاركة الجماعية؛ حيث حوّل النزاع القبلي المحتدم، إلى تعاون مشترك؛ ببسط ثوبه ﷺ ليحمل الجميع أطرافه، هذا الأسلوب القيادي المرن لم يحقن الدماء فحسب، بل أرضى كبرياء القبائل وأشعر كل طرف بأنه نال شرف رفع الحجر، محولاً الأزمة إلى نموذج تاريخي في إدارة الصراعات الذكية.

أما عن الصحابة رضوان الله عليهم فهناك العديد من النماذج

النموذج العمري:

كان الفاروق عمر رضي الله عنه من الملهمين، ومن الأولياء الأصفياء، بدليل قول سيدنا رسول الله ﷺ "إِنَّ اللهَ وَضَعَ الْحَقَّ عَلَى لِسَانِ عُمَرَ يَقُولُ بِهِ" [2] وللفاروق موافقات كثيرة يطول شرحها منها موقفه من الحجاب ومن أسرى بدر وغيرهما من الموافق، التي تدل على ولايته وصفاء سريرته رضوان الله عليه.

ومن بين تلك المواقف ابتكار فكرة الوقف الإسلامي، التي أصبحت من أهم دعائم وركائز الحضارة الإسلامية، بل إن شئت فقل إن جل الكبار من القرن الثاني وحتى عصرنا الحالي عيال على هذا النظام الرائع، والابتكار الماتع، الذي كفل لهم حق التعليم والحياة الكريمة بالمجان، فخرج لنا العديد من الجبال الراسخة في شتى المجالات، بداية من جيل التابعين مرورا بكبار الأمة، ممن تخرج من الأزهر الأنور، أو الزيتونة، أو القيروان، أو مدارس السلاجقة والأيوبيين، أو مدارس المماليك والعثمانيين، أمثال شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، والحافظ ابن حجر العسقلاني خطيب وإمام الجامع الأزهر، وأمير المؤمنين

[1] الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله. دلائل النبوة. تحقيق محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس. ط٢. بيروت: دار النفائس، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، صـ١٧٦

[2] ابن حنبل، أحمد. مسند الإمام أحمد بن حنبل. تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين. إشراف عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط١. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، جـ٣٥، صـ٣٦٢، رقم الحديث ٢١٤٥٨.

في الحديث في زمانه، أو البدر العيني، والسراج البلقيني، والتاج السبكي، والطاهر ابن عاشور، والقائمة تطول جدا!

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَصَابَ أَرْضًا بِخَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ يسْتَأْمِرُهُ فِيهَا؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنْفَسَ عِنْدِي مِنْهُ، فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ قَالَ: "إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا". قَالَ: فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ أَنَّهُ لَا يُبَاعُ، وَلَا يُوهَبُ، وَلَا يُورَثُ. وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الْفُقَرَاءِ، وَفِي الْقُرْبَى، وَفِي الرِّقَابِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالضَّيْفِ، لَا جُنَاحَ عَلَى مَنْ وَلِيَهَا أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ وَيُطْعِمَ غَيْرَ مُتَمَوِّلٍ. قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ ابْنَ سِيرِينَ فَقَالَ: غَيْرَ مُتَأَثِّلٍ مَالًا" [1]

فمن واقع حديث ابن عمر رضي الله عنهما، يتجلى الابتكار العمري في أبهى صوره؛ فحينما رُزق عمر بأثمن أمواله في خيبر، لم يقف عند حدود التفكير التقليدي في الصدقة العابرة، بل دفعته رؤيته الإبداعية إلى استشارة النبي ﷺ قائلاً: «ما تأمرني به؟»، ليأتي التوجيه النبوي الحاسم كقاعدة ذهبية للابتكار المستدام: «إن شئتَ حبَّستَ أصلَها وتصدَّقتَ بها»، لتتحول الفكرة الذهنية العبقرية، إلى نظام مؤسسي وقفي فريد، يقوم على حظر البيع والهبة والإرث، مع حوكمة إدارية تضمن استمراريته، ليصبح هذا الموقف التاريخي حجر الأساس الذي نهضت عليه كبرى قلاع العلم والحضارة كالأزهر والزيتونة، وكفل تفرغ جبال الأمة المعرفية كابن حجر والعز بن عبد السلام عبر العصور.

ولتظل العبارة العمرية في كافة وثائق الوقف لَا يُبَاعُ، وَلَا يُوهَبُ، وَلَا يُورَثُ

موقف أخر من مواقف عبقرية الصحابة، يكشف لنا عن تشجيع النبي ﷺ للمواهب واحتضانه لها.

[1] المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ)، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – ﷺ – وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، دار التأصيل – القاهرة، ط١، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢م، جـ٣، صـ٥٨٠، رقم الحديث ٢٧٥٤.

حسان بن ثابت وكعب بن زهير وأثر النبي صلى الله عليه وسلم في نبوغهما:

حسان بن ثابت: بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد، الصحابي، شاعر الرسول ﷺ، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية، مثلها في الإسلام، كان من سكان المدينة المنورة، واشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته، في عهد الإمام علي رضي الله عنه،[1] لم يشهد مع النبي ﷺ مشهدا لعلة أصابته، ومع هذا كان لسانه أحد من السيف، وأقوى من السهام، يوجهه في صدر أعداء الرسالة والدعوة، ففي الحديث عَنِ ابْنِ الْمُسَيِّبِ: أَنَّ حَسَّانَ قَالَ فِي حَلْقَةٍ فِيهِمْ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنْشُدُكَ اللهَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: " أَجِبْ عَنِّي، أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ "؟ فَقَالَ: اللهُمَّ نَعَمْ"[2]

ويتجلى في هذا الحديث النبوي الشريف أرقى مستويات احتضان المواهب وتوجيهها؛ فحينما واجهت الدولة الناشئة حرباً إعلامية شرسة، لم يُلغِ النبي ﷺ التمايز الفردي، بل التفت إلى موهبة حسان بن ثابت الأدبية، ووظفها لخدمة الرسالة عبر هذا التفويض الإبداعي: «أَجِبْ عَنِّي» ولم يقتصر الأمر على التكليف، بل قرنه بأعلى درجات الدعم والتحفيز النفسي: «أَيَّدَكَ اللهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ»، مما أطلق طاقات حسان الإبداعية، وحوّل الكلمة الشاعرية من مجرد فن أدبي إلى سلاح استراتيجي، ومنصة إعلامية مبتكرة، حمت الجبهة المعنوية للأمة، وجعلت حسان يستشهد بهذا الابتكار التشجيعي بفخر أمام الصحابة طوال حياته، وإن شئت فقل إن حسان – رضي الله عنه – كان بمثابة المستشار الثقافي والمتحدث الإعلامي باسم الدعوة الإسلامية في العهد النبوي.

ومن أشعاره يدافع فيها عن سيدنا رسول الله ﷺ

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا وَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ

---

[1] عن ترجمته انظر ابن حبان، أبو حاتم مُحَمَّد. مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار. تحقيق ووثوق وتعليق مرزوق علي إبراهيم. الطبعة الأولى. المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١١ هـ – ١٩٩١م، صـ٣٢؛ الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله. معرفة الصحابة. تحقيق عادل بن يوسف العزازي. الطبعة الأولى. الرياض: دار الوطن للنشر، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م، جـ٢، صـ ٨٤٥.

[2] الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام. المصنف. تحقيق ودراسة مركز البحوث وتقنية المعلومات – دار التأصيل. الطبعة الثانية. القاهرة: دار التأصيل، ١٤٣٧ هـ – ٢٠١٣م، جـ١٠، صـ ٢٩٩، رقم الحديث ٢١٥٨٢.

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا ... أَمِينَ اللَّهِ شِيمَتُهُ الْوَفَاءُ

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

لِسَانِي صَارِمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ ... وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدِّلَاءُ[1]

ولدينا كذلك الموهبة المتفردة التي رعاها النبي الأكرم ﷺ كعب بن زهير بن أبي سلمى، الذي قد هجا سيدنا رسول الله ﷺ وأخبر النبي ﷺ بذلك فأهدر دمه، فكتب إليه أخوه بُجير بن زهير (وكان قد أسلم وحسن إسلامه) ليحذره ..ولما قرأ كعب كتاب أخيه، ضاقت به الأرض ولم يدرِ أين يجد النجاة، فقرر المخاطرة ودخول المدينة مستجيراً بكبار الصحابة: حيث أتى أولاً إلى سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ فاستجاره، فقال له أبو بكر: «أكره أن أجير على رسول الله ﷺ وقد أهدر دمك».

ثم أتى الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، فقال له مثل ذلك، وأخيراً، أتى على الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، فدله على حيلة ذكية ومبتكرة تضمن له النجاة والوصول للأمان النبوي؛ فقال له علي: «أدلك على أمرٍ تنجو به... تصلي مع رسول الله ﷺ، فإذا انصرف فقم خلفه، وقل: يدك يا رسول الله أبايعك! فإنه سيناولك يده من خلفه، فخذ يده فاستجره، فإني أرجو أن يرحمك».

ففعل كعب ما أشار به علي ﷺ بدقة؛ انتظر انصراف النبي ﷺ من الصلاة، ووقف خلفه، وطلب مبايعته، فلما ناوله رسول الله ﷺ يده، أخذ كعب بيده واستجاره وتراجع عن هجائه معلناً توبته، فقبل النبي ﷺ استجارته وعفا عنه بحلمه ورحمته الواسعة. وكان مما أنشده:

وقالَ كلُّ خَليلٍ كنتُ آمُلُهُ: ... لا أُلهينّك إنّي عنكَ مَشغُولُ

[1] ابن هشام، جمال الدين عبد الملك. السيرة النبوية لابن هشام. تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي. الطبعة الثانية. مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥م، جـ٢، صـ٤٢٤.

فقُلتُ: خلّوا سَبيلي، لا أبا لكُمُ، ... فكلّ ما قَدّرَ الرّحمَنُ مَفعُولُ

أُنبِئتُ أنّ رسولَ اللّه أوعَدَني، ... والعَفوُ عندَ رَسولِ اللّهِ مأمولُ[1]

ومن شعره

إنّ الرّسولَ لَنُورٌ يُسْتضَاءُ بِهِ، ... وَصَارِمٌ من سيوفِ اللّهِ مَسْلُولُ

في عُصْبةٍ من قَريشٍ قال قائلُهم، ... بِبَطْنِ مكّة، لما أسلموا: زُولوا

زَالوا، فما زال أنكاسٌ، ولا كُشُفٌ، ... عِنْدَ اللّقاءِ، ولا مِيلٌ مَعازيل[2]

وقيل: فرح النبي ﷺ وكساه بردته جائزة له: فلما كان زمن معاوية أرسل إلى كعب: أن بعنا بردة النبي ﷺ، فقال: ما كنت لأوثر ثوب رسول الله ﷺ أحدا، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم ونقل الملك المؤيد أبو الفداء إسماعيل صاحب حماة في تاريخه أنه اشتراها بأربعين ألف درهم، ثم توارثها الخلفاء الأمويون والعباسيون، حتى أخذها «التتر»[3]

وقد تجلّى احتضان النبي ﷺ لموهبة كعب بن زهير في عفوِهِ الكريم عنه، وقبول توبته بعد الاستجارة، بل وتكريم قريحته الشعرية بخلع بردته الشريفة عليه مكافأةً لقصيدته، ممّا حوّل طاقته الأدبية الفذة من الهجاء المعادي إلى منبر إعلامي يُنير تاريخ الحضارة الإسلامية.

النموذج العسكري

[1] القرشي، أبو زيد مُحَمَّد بن أبي الخطاب. جمهرة أشعار العرب. تحقيق وضبط وشرح علي مُحَمَّد البجادي. (القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع)، ص. ٣٧.

[2] السابق، ص ٦٤٠.

[3] رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي (ت ١٢٩٠هـ) نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، دار الذخائر – القاهرة الطبعة: الأولى – ١٤١٩هـ، ص٣٦٤.

وقد تجلى هذا النموذج النبوي الخالد في احتضان المواهب، وعطف الكبير، وتطبيق مبدأ الشورى في غزوة بدر، حين قال النبي ﷺ أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ [1] تطبيقا للقاعدة القرآنية ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد جرى تطبيق هذا المبدأ في العديد من المواقف منها موقف الحباب بن المنذر قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فحُدثت عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي سَلمة، أَنَّهُمْ ذَكَرُوا: أَنَّ الحُبَاب بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الجَموح قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ أرأيتَ هَذَا الْمَنْزِلَ، أَمَنْزِلًا أنزلَكه اللَّهُ لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ، وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ، أَمْ هُوَ الرأيُ والحربُ وَالْمَكِيدَةُ؟ قَالَ: "بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ". فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى نَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ، فَنَنْزِلَهُ ثُمَّ نُغَوِّر مَا وَرَاءَهُ مِنْ الْقُلُب، ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا فنملؤه مَاءً، ثُمَّ نُقَاتِلُ الْقَوْمَ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَقَدْ أشرتَ بِالرَّأْيِ". فَنَهَضَ رسول الله ﷺ ومن مَعَهُ مِنْ النَّاسِ فَسَارَ حَتَّى إِذَا أَتَى أَدْنَى مَاءٍ مِنْ الْقَوْمِ نَزَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أمر بالقُلُب فغُوِّرت، وبنى حَوْضا على القُلُب الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ فَمُلِئَ مَاءً، ثُمَّ قَذَفُوا فيه الآنية [2]

كما تجلّى في هذا النص أرقى مستويات الابتكار الاستراتيجي والفصل بين التشريعي والتكتيكي؛ فحينما قدّم الحباب بن المنذر رؤيته العسكرية القائمة على التحكم بالمورد اللوجستي الأول (الماء)، احتضن النبي ﷺ كفاءته وخبرته فوراً بقوله: «لقد أشرتَ بالرأي»، وحوّل المقترح إلى واقع تنفيذي بهدم الآبار وبناء حوض جامع، ممّا حرم العدو من شريان المعركة وحسم النصر بأدوات هندسية مبتكرة.

وفي غزوة الخندق أشار سلمان الفارسي – رضي الله عنه – بحفر الخندق، وقد نقل سلمان تلك الفكرة وهذا التكتيك الحربي الذي تعلمه من الفرس إلى ميدان المعركة الإسلامية، وأشار على النبي ﷺ بتطبيق تلك النظرية الحربية الجديدة، فلم يتوان سيدنا رسول الله ﷺ في تنفيذ تلك الفكرة، في مكان كان سيعد ثغرة وثلمة كبيرة ينفد منها المشركون لقلب مدينة سيدنا رسول الله ﷺ، لولا تلك الفكرة العبقرية، التي تحولت إلى واقع عملي تجريبي لأول مرة، وبإشارة من سلمان، حينها أطلق النبي ﷺ تصريحا يعد دستورا خالدا،

[1] سيرة ابن هشام، جـ١، صـ٦١٥.

[2] سيرة ابن هشام جـ٢، صـ١٩٢.

أن الانتساب إلى بيت سيدنا رسول الله ﷺ وآل بيته الأطهار الأبرار ليس فقط عن طريق وشيجة النسب والمصاهرة، ولكن كذلك بالحب الصادق وصدق المشورة، حينها أعلنها النبي الأكرم ﷺ سلمان منا.

يروي أصحاب السير وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسيّ، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حر، فقال: يَا رسول الله، إنَّا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا. فعمل فيه رسول الله ﷺ حتَّى أحكموه [1]

النموذج الدعوي:

كان النبي ﷺ حريص على النشء، قريبا منهم، يدعمهم ويشجعهم، وليس أدل على ذلك مواقفه المتعددة مع حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله عنه – ولعل منها موقفه في الحديث الشهير أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ... [2]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، فَوَضَعْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ وَضَعَ هَذَا؟» فَقَالَتْ مَيْمُونَةُ: وَضَعَهُ عَبْدُ اللهِ، فَقَالَ: «اللهُمَّ عَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ، وَفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» [3] وغيرها من الأحاديث، مثال أخر يدل على تشجيع النبي ﷺ للمواهب الشابة، باعتبارها عماد الأمة، ومستقبلها المشرق، عَنْ عَمْرِو بْنِ سَلَمَةَ. قَالَ: قَالَ لِي أَبُو قِلَابَةَ: أَلَا تَلْقَاهُ فَتَسْأَلَهُ؟ قَالَ فَلَقِيتُهُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: كُنَّا بِمَاءٍ مَمَرَّ النَّاسِ، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَنَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ، مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ

---

[1] أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت ٤٢٧هـ) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢م، جـ٨، صـ١٣؛ أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن مُحَمَّد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ) المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، جـ١، صـ١٣٤؛ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن مُحَمَّد المقريزي (ت ٨٤٥ هـ) إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق وتعليق: مُحَمَّد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م، جـ١، صـ٢٢٥.

[2] الإمام أحمد، المسند، جـ٥، صـ١٩.

[3] الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد. المعجم الكبير. تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، جـ ١٠، صـ٢٣٨، رقم الحديث ١٠٥٨٧.

أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ. أَوْ: أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا، فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ، وَكَأَنَّمَا يُقَرُّ فِي صَدْرِي، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوَّمُ بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ حَقًّا، فَقَالَ: (صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا). فَنَظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي، لِمَا كُنْتُ أَتَلَقَّى مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصَتْ عَنِّي، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلَا تغطون عَنَّا اسْتَ قَارِئِكُمْ؟ فَاشْتَرَوْا فَقَطَعُوا لِي قَمِيصًا، فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ" [1]

تُثبت شواهد السيرة النبوية العديدة، أن الإبداع والابتكار في العهد النبوي الشريف، قاما على كسر الجمود، واحتضان الطاقات الشابة كعماد للمستقبل، فتحول التشجيع النبوي لابن عباس وعمرو بن سلمة إلى منهجية تُقدّم الجدارة والمعرفة على السن والوجاهة، إن هذا التمكين المبكر، وتفويض الكفاءات مثل حسان وكعب- رضي الله عنهما- يؤكد أن نجاح العمل الدعوي المعاصر مرهون بقدرته على اكتشاف المواهب الشابة، وتوفير الحواضن المناسبة التي تُطلق إبداعاتهم، وهو ما يفرض على المؤسسات الإسلامية اليوم مغادرة الوسائل التقليدية، واقتفاء الأثر النبوي في صناعة قيادات شابة؛ قادرة على قيادة الفكر وتنمية المجتمعات، وقد لمسنا ذلك بالفعل في العديد من مؤسساتنا في عصرنا المعاصر.

النموذج المعماري

كما تؤكد شواهد السيرة النبوية في الشق المدني أن رسول الله ﷺ لم يكن جامداً أو واقفاً عند قوالب مصمتة، بل كان إماماً مبدعاً يُشجع على الإبداع والابتكار، ولا ينغلق على فكرة أو وسيلة بعينها؛ بدليل أنه لم يعترض حينما عرض عليه الصحابة قائلين: «نصنع لك منبراً» عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ إِلَى خَشَبَةٍ، فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرُوا، أَفَلَا

[1] صحيح البخاري، جـ٥، صـ ٣٨٤، رقم الحديث ٤٢٨٤

نَتَّخِذُ لَكَ مِنْبَرًا تَقُومُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الْجَائِيَ يَجِيءُ، فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ وَلَمْ يَسْمَعْ مِنْكَ شَيْئًا، فَأَمَرَ غُلَامًا لِلْأَنْصَارِ، فَأَخَذَ مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ، فَجَعَلَ لَهُ هَذَا الْمِنْبَرَ، فَلَمَّا جَلَسَ عَلَيْهِ حَنَّتِ الْخَشَبَةُ الَّتِي كَانَ يَقُومُ إِلَيْهَا، فَجَاءَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا حَتَّى سَكَتَتْ[1]

ليتجاوز المجتمع مرحلة الخطابة على جذع النخلة إلى الابتكار الإداري والإعلامي، وتطوير قنوات التواصل مع الجمهور.

وكذا تجلت هذه المرونة في استجابته الدائمة لتوسعة المسجد النبوي وتطوير عمارته بالتزامن مع نمو الدولة وتغير الاحتياجات الاجتماعية والعسكرية، مرسخاً قاعدته الذهبية الخالدة: «أنتم أعلمُ بأمورِ دُنياكم»، التي كانت بمثابة إعلان دستوري يفتح الآفاق للاجتهاد البشري، والتطوير المعرفي، والمادي.

ومن هذه البيئة المرنة المنفتحة التي رعاها النبي الأكرم، انطلقت القواعد المعمارية الجميلة والطرز الرائدة التي تُثبت احتضان الحضارة الإسلامية للابتكار، وتفردها بأساليب هندسية سارت عليها القرون؛ مثل الزخارف النباتية، وفنون الأرابيسك، والطبق النجمي، ولم تكن هذه الفنون التشكيلية مجرد تزيين مصمت أو زخرفة عابرة، بل اتخذت أساساً من قاعدة فلسفية عميقة تُجسد حركة الكون ورؤية الوجود؛ حيث يبدأ التصميم الهندسي من نقطة مركزية معروفة ومحددة، ثم يتشعب ويسير ويتمدد في خطوط متداخلة تحاكي ما لا نهاية، ثم يعود بعد ذلك في دورة هندسية بديعة ومحكمة إلى نفس النقطة الأولى التي انطلق منها.

إن هذا التكرار اللانهائي والاتساع الدائري يمثل في جوهره إشارة بصرية مذهلة وممتدة تُحاكي تفرد الخالق سبحانه، وتدل على وحدانيته، وقدرته، وبديع صنعه في ملكوته الذي يبدأ منه وإليه يعود.

وبذلك تحولت العمارة الإسلامية من مجرد أحجار وبناء إلى رسالة دعوية صامتة تعكس هوية الأمة وعمقها الإيماني، رأيناها في الشرافات أعلى أسطح المساجد التي تدل على وحدة المسلمين، وتدلل بعنصر زخرفي

[1] معجم الطبراني، جـ٦، صـ١٩٤، رقم الحديث ٥٩٧٧.

جمالي، أن العين لا تقع إلا علي كل جميل، رأيناها في المنابر ودكك المبلغ، والمآذن بأركانها الثمانية وكأنها تشير إلى عرش الرحمان وحملة العرش الثمانية!

مما يبرهن على أن المرونة النبوية في التعامل مع الشؤون المدنية والمعمارية كانت هي الشرارة الأولى التي فجرت طاقات الإبداع لدى المسلمين، وجعلتهم يقدمون للعالم نموذجاً حضارياً متفرداً، يدمج بين سمو العقيدة وعبقرية الهندسة والتصميم.

جمع وترتيب

الفقير لعفو مولاه د محمد سالم الصعيدي الأزهري

الأستاذ المشارك بالأزهر الأنور